

مركز التوثيق الاقتصادي و الاجتماعي خارج عرينه، ظلال المعرفة  
إلى أين؟

مختار مروفل

أستاذ بقسم علم

الاجتماع جامعة معسكر، و باحث متعاقد

بالمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية

( CRASC ) بوهران.

تمهيد :

نحن أساتذة " الشتات "، المحرومون من حق التوطين ومن حق العودة على حد سواء، نكاد نكون رسلا حقيقيين إلى المناطق التي انتدبنا لأجل العمل فيها، فتجربة " الهنا " و " الهناك " (1) التي نعيشها، أوحى لأحد الصحفيين المحليين ذات مرة أن يسألني " إذا ما كنت أعتقد في نفسي أم لا، أنني أحمل رسالة التحضير و التمدين إلى هؤلاء المحليين الأهالي من الطلبة " !!، بطبيعة الحال أنا لست معنيا لا من قريب و لا من بعيد على المستوى الشخصي، بتلك النظرة الاستعمارية الدونية التي ظاهرها فيه الرحمة و باطنها من قبله العذاب، لكن الشاهد من هذا كله، أننا فعلا نحن " أساتذة الشتات " موجودون ضمن شعور محسوس و ملموس، يضعنا في " منزلة بين المنزلتين "، منزلة المعيد البعيد المتنقل، الذي يأتي من وضع حضري وثقافي متميز نسبيا، يحمل بصمة المركز و آثاره التعليمية و التكوينية، ومنزلة الشخص الذي يحل بالمناطق الطرفية، فيجد ضعف في المعارف الابتدائية و قلة في الوسائل التخصصية و عزلة في المستندات الفكرية.

كل هذه الملاحظات هي سمات بارزة نلمسها و نحن نقوم بتأدية مهامنا في الأطراف، ربما تكون بعض الملاحظات و العبارات، التي نسمعها من قبل بعض الطلبة وبعض الأعوان على حد سواء، دالة على ذلك كأن تسمع مثلا " أنتم الأساتذة من وهران، الأكثر تكويننا من حيث المعلومات و الإحالات و الأقدر استعمالا للغات والأكثر مرونة و بساطة في المعاملات، مقارنة مع أساتذة آخرون يأتون من مناطق أخرى، تمنحوننا النموذج الأمثل الذي يجب أن تكون عليه الجامعة "، أو تسمع مثلا " أنت مكانك ليس هنا يا أستاذ " !!، بطبيعة الحال لست بالغر الذي تدغدغه عبارات الإطراء و الثناء فأنا أعرف محدوديتي وحاجتي الدائمة إلى الاستزادة و التكوين، و قديما قيل " رحم الله امرأ عرف قدر نفسه فوقف عنده "، ليس هذا هو الإشكال بالنسبة لي.

إنما الذي يهمني هنا هو التأمل و التفكير، عم يترتب عن شرط التفاعل و التقاطع بشكل مستمر مع مختلف المستويات المهنية التي نواجهها في الجامعة، إذ لا يمكنني إغفال هذه الوقائع أو الاستقصا من قيمتها، لكن في ذات الوقت لا أريد أن أتوسع و أكثر من الوقوف على التفاصيل المغمورة و مسكوت عنها التي تزرع تحت سراديب التابوا و الممنوع و التي يترتب عنها العمل و الفعل، خصوصا في توزيع الأدوار و ترتيب المكانات التي تعتمد في الغالب مبدأ " الحبايب و القراب "، بدلا من الشروط المهنية و الاستحقاقية التي تغلب المصلحة العامة على المصالح الجزئية الضيقة، الذي يهمني في هذه العجالة هو الإشارة ابتداء إلى وضعيتنا نحن " كذاوات " تعليمية تواصلية، تعمل ضمن سياق تبادلي " ديالوجي " متسائلين بذلك عن ماذا نعنيه نحن في نظر الآخرين؟، هذا شرط مسبق كامن، ضروري التنبيه إليه ونحن نرصد بشكل معين،

انعكاسات مكانة مركز التوثيق الاقتصادي و الاجتماعي خارج عرينه و الذي نحمل نحن " أساتذة الشتات " آثاره أينما حللنا و ارتحلنا.

## 2- مركز الوثائق الاقتصادية و الاجتماعية في معسكر :

بداية لا بد من الإشارة أن البداية الأولى لتمدد CDES خارج نطاقها، واقتحامها مجالات أخرى عدا الخدمة المكتبية الصرفة، جاءت في مدينة معسكر - محل عملي-، في يوم 20 مارس من سنة 2006 لقد تحققت هذه الخطوة اثر الاتفاق المتبادل، الذي حصل بيني و بين السيد نور الدين رباح مدير المكتبة البلدية لمدينة معسكر، على أن يقدم الصديق المحترم السيد Jean Hervé Cardinal مداخلة في الملتقى المنظم من قبل المكتبة المذكورة أعلاه، و الذي كان يحمل عنوان " أي مكتبة في القرن الواحد و العشرين ؟ " (2)، حيث حضره جامعيون و أخصائيون في المكتبات وطلبة، لقد تحدث حينها السيد Hervé عن التطور التاريخي الذي عرفته مكتبة CDES، وذلك منذ الاستقلال سنة 1962 إلى لحظة تقديم المداخلة، منوها بذلك بمكانة مكتبة ابن خلدون الكائن مقرها في شارع سيد أحمد قادري، و ما تتوفر عليه من وثائق ومراجع تخص الشأن الاقتصادي والاجتماعي وكذا القانوني، و مكتبة صوفيا تلك التي تتواجد في شارع العربي بن مهيدي وتعنى بشكل أساسي، بالمعرفة الفلسفية و التاريخية و البسيكولوجيا التي أضيفت اليها لاحقا.

لقد تحدث السيد Hervé أمام الحاضرين عن مخاوف القائمين على الشأن المكتبي، بشأن التقدم التكنولوجي وتأثيره على الطلبة الشباب في تلقي المعلومات، حيث طمأنهم أن CDES تتوفر على تقنية الإعلام الآلي و على الانترنت، على أن لا تحل هذه الأدوات محل الكتاب و تعوضه، إنما لتعزز من

تتويج الوسائل من أجل الوصول السهل و السريع إلى المعلومة، لقد أنهى المتدخل محاضراته بتوصية تحث على أهمية الشراكة و التعاون و التبادل، في ما بين مختلف " المكتبات الصغيرة "، وذلك حتى تتم الاستفادة من الإمكانيات و المؤهلات المتاحة من خلال العمل المشترك، بعد الانتهاء من فعاليات الملتقى و من أجل التعريف بشكل موسع CDES ، دعوة السيد Hervé ليرافقني إلى الجامعة حيث الطلبة و التدريس، أين أتحت له الفرصة لملاقاة جموعهم و تبال الحديث معهم بشكل عفوي، طال مزايا CDES و النشاطات و الفعاليات التي ينفرد بها المركز، هذه الخطوة تعد الأولى من نوعها في ولوج الأخير إلى فضاء الجامعة المذكورة و ترك بصمته في أذهان الطلبة المعنيين، حيث بدأ التساؤل و التفكير و لو بشكل فضولي بالانتقال إلى هناك، وذلك قصد التعرف على المكتبة و التسجيل فيها .

### 3-طلبة معسكر في مركز ابن خلدون

أنوه في هذا العنوان ببعض التصورات و الممارسات الخاصة بالطلبة، الذين يأتون من جامعة معسكر إلى هنا بحثا على المراجع و العناوين، التي تساعدهم في انجاز مذكراتهم و أعمالهم التطبيقية، أفضل في هذا الصدد ترك الكلمة لتحدث عن هذه التجربة إلى المعنيين أنفسهم، فهم الأجدر و الأولى في الكشف عن الإضافات العملية التي تسهم بشكل خصوصي في إثراء المكتبة، فوضعيتهم المتعلقة سواء بالاتصال أو بالتصرف داخل المركز، تستحق منا هنا كل الذكر.

عائشة السنة الثانية ماستر في علم الاجتماع الدين جامعة معسكر تقول " لقد كان للأساتذة الذين يأتون من وهران الفضل الكامل، في

تعريفنا بـ **CDES** وحثنا على ضرورة التسجيل فيها، بالأخص قولهم لنا أن المكتبة تنفرد عن غيرها بوجود متخصصين موجهين، بإمكانك أن تحصل على المعلومة بمساعدتهم بكل سهولة!، ربما كان ذلك السبب الرئيسي وراء مجيئي إلى هنا "، و في حديثها عن المزايا التي تجدها في المكتبة تقول فاطمة السنة الثانية علم الاجتماع الاتصال من جامعة معسكر، " ما أعجني بشكل خاص، أن الناس يأتون هنا ليشغلون و يعملون و ليس لشيء آخر، فلا أحد يضيع وقته في ما لا يفيد، هنا وجدت نفسي أطالع باللغة الفرنسية و أقوم بمجهود في هذا الصدد، الشيء الذي لم أعتده من ذي قبل، فالعمل باللغتين يكاد يكون معدوما في جامعتنا، بالإضافة إلى ذلك فإن المكتبة توفر لك فرصة اللقاء مع الباحثين و الأستاذة الكبار الذين كنا نسمع عنهم أو نقرأ لهم "، في ذات التخصص و من نفس الجامعة يقول عبد القادر " عندما جئت إلى هنا، - يقصد CDES - شعرت بمدى الضعف و النقص في التكوين الذي تلقيناه في الجامعة، هذا ناهيك عن الشعور بالتهميش

و حالة اللامبالاة وضبابية الرؤية، هنا وجدت الأمل والتفت لأول مرة مع التخصص الذي أزاوله، لقد اكتشفت أنه بالإمكان أن ألحق نفسي و أحقق مطامحي !! " .

الملفت أن " طلبتنا " الذين هم على صلة بمكتبة CDES، يضعون لأنفسهم مكانة تميزهم عن غيرهم من عموم الطلبة الذين يكتفون بالمكتبات المحلية، و لا يكلفون أنفسهم عناء السفر و تجشم المتاعب قصد التعامل والعمل بـ CDES، تقول في هذا المعنى سعادتي التي تستكمل دراستها في الماجستير تخصص علم الاجتماع " أنا لست كباقي الطلبة الذين لا يعرفون عن CDES شيء، فلقد تعلمت

من هذه المكتبة ما الذي يجب عليا قراءته، حيث تعرفت على عناوين الكتب و المجالات المتخصصة وأتدرب بشكل جدي على حسن الاستفادة منها، نظرائي الآخرين لا يعلمون شيء من هذا، ومعرفتهم جد سطحية إن لم أقل عمومية، لذلك فأنا أنأى بنفسى عن مصاحبتهم و مجالستهم بشكل وثيق، اللهم إلا على سبيل المعاملات العمومية " .

نستطيع أن نقول تعليقا على ذلك ودون مبالغة، أن مرجعية CDES، هي أداة لتفاضل و لتباهي تسهم من داخل الجامعة في تلوين المشهد الطلابي العام، الذي لا تتشكل جموعه أصلا إلا من روح التنافس و التباري و معايير التحكيم، الملزمة في الفصل بين الناجحين و الراسبين، فالتفاضل و التمايز إذن هما شرطان مؤسسان لمكانة الطالب الجامعي<sup>(3)</sup>، ضمن هذه الدلالة تقرأ الصلة بـ CDES التي ترقى بحسب رثينا إلى مستوى مرجعية يبني عليها التكوين و المعرفة، بالأخص لدى الطلبة المنتمون إلى الجامعات البعيدة.

### الهوامش :

(1) في الحقيقة إن مفهومي الهنا و الهناك المنتمیان إلى المعرف الأنثروبولوجية، يؤكدان على مستوى بناء الملاحظات أن ذاتية الباحث ضمن هذا الاختصاص تتشكل بطريقة متقاطعة، يتدخل فيها موطن التنشئة وتكوين المسلمات المعرفية le globale "الشمولي" الأولي لدى الباحث، و بين " المحل " مجال الخصوصيات الثقافية و الأعراف و التقاليد الذاتية، حول هذه الصورة فان " الباحث المحلي " - على الرغم من محليته - فهو لا يعدم أن يجد نفسه من خلال تجربة الحل و الترحال الدائمتين، أنه متردد على نطاقين مختلفين من حيث الوتائر و السرعة، لتوسع في المسألة يمكن الرجوع إلى كتاب

Geertz (C), 1996, ici et là-bas, l'anthropologue comme auteur, Paris, Editions Métailié.

(2 Le Lien, Diocèse D'Oran, 2006, N 341.

(3 Felouzis (C), 2001, la condition étudiante, sociologie des étudiants et de l'université, Paris, P.U.F.